وتكاد ترتبط صلة الخديو بالسلطان بتوقف صلة توفيق البكري بالخديو، ففي عام ١٨٩٥ استعفى توفيق البكري من نقابة الأشراف، وفي ذلك يقول: «إني لما كنت رئيساً للجنة الميزانية في مجلس شورى القوانين طلبت أن يزاد للأزهر مبلغ من المال ثم سعيت حتى رتب له ألفا جنيه، ولم يكن لي غرض في ذلك إلا مساعدة العلماء، وهم أولى الناس بالمساعدة والمعاونة، فوشى بعض أعدائي بي لدى الجناب الخديوي وزعم أن لي في ذلك مقصداً سياسياً، فتغير خاطره...» وقد ذكرتني هذه الحادثة بحادثة الشريف الرضي في استقالته من نقابة الأشراف ببغداد سنة ٣٨٤ هجرية لتشابههما في الظروف والأحوال. وقد ذكر الشريف استقالته في قصيدة لامية حيث قال:

وما حط الأعادي لي محلا
ولكن حطني الدهر الثقيلا

فإن أخذوا الأقل من المعالي
فقد تركوا من الصون الأجلا

بمجد طال ما شمرت فيها
فدونك فاسحب الذيل الرفلا (١)

ولكن ما هو هذا المقصد السياسي؟ أكان الخديو يخشى من البكري ما خشيه السلطان من الخديو؟ أكبر الظن أن طموح البكري كان قد بلغ أوجه، وكانت الدلائل كلها تدعو الخديو إلى أن يتخذ منه موقفاً، فمنزلته من السلطان منزلة الابن، بل لقد قال لي السلطان عند الانصراف من زيارته: «لقد صرت من الآن ابني» (٢) ولم يقلها للخديو، ومنحه من الأوسمة ما لم يمنحها لمصري. وهذا

---

(١) بيت الصديق ص ٦٤

(٢) شعراء العصر جـ ١